قصة

قصيرة

اصطلاء

عبدالرحمن الربيعي

-١-

صرخ في وجهها:

ـ ماذا تريدين مني؛ اتركيني اهدأ لحظة.

وأجابته:

ـ أريدك أن تنهض بحملك كزوج.

ـ وماذا أفعل لك حتى أنهض بحملي هذا؟

ـ شاركني في همومي، اسألني عن حاجتي، خذ أطفالك ونزّههم، افعل شيئاً يجعلني أحس بوجودك معي في هذا البيت.

لم يجد في نفسه الرغبة لمواصلة مثل هذا الحديث. أطبق الباب وراءه وارتمى في الشارع.

-٢-

قطع حاتم في طريقه مجموعة من البيوت الحكومية المتشابهة حيث الغرف الواطئة والأسيجة التي تتقدم البيوت وقد تعالت منها أشجار النخل والبرتقال.

وكان الصبية يملأون الشارع ضجيجاً كمثل عادتهم في مثل هذا الوقت حيث ينسلّون للعب الكرة تاركين وراءهم أسرهم الغاطّة في قيلولة الظهيرة.

وكانوا قد توزعوا على فريقين ومضوا في اللعب. ولمح ابنه الكبير بينهم لكنه لم يعره اهتماماً، ولم يحتجّ على وجوده في مثل هذا الجو الساخن مخافة أن تصرعه ضربة شمس،وآنذاك سيفتح له باب جديد لمداواته والدوران به على عيادات الأطباء.

حثّ خطاه وكان في ذهنه مكان واحد هو المقهى،حيث يندسّ في صخبه ليلعب الطاولة أو الدومينو مع أصحابه.

نظر في ساعته ثم حثّ خطاه، لابد أنهم قد افتقدوه الآن، وقد يتساءلون عن السبب الذي أخّره، وسيحزرون انها امرأته بلا شك، فهذا مايحدث لهم هم على الدوام. لابد وأن يجدن عذر اليُبقين رجالهنّ في البيوت، وكم تكبر فرحتهن عندما ينجحن في ذلك.

-٣-

ليلعبوا الكرة أو أية لعبة أخرى تبتدعها عقولهم الشابة فهم يريدون أن يعيشوا صباهم ويملأوا دقائقهم بفعل. لقد كنت مثلهم يوماً أجمع أقراني لنلعب الكرة أو الكعاب. وقد برّزت في كرة القدم. كنت أطلق ساقيّ المخيفتين فتمضيان مسرعتين كساقيْ ظبي مطارد. وكانت الكرة معي غالباً ولن أهدأ مالم أزرعها في الهدف ليتعالى التصفيق، أما أفراد الفريق الخصم فكانوا يتأملون حجمي الضامر بفضول، وقد سمعت أحدهم يقول:

ـ لماذا لاتكسرون ساقه؟ انه صغير كجرذ، ولكن الكرة لن تذهب بعيداً عنه، واذا أمسك بها فلابد أن يقودها الى هدفها، دعونا نحاصره ونلقّنه درساً.

وتلقفتني ساحات اللعب، وتنقلت بين الفرق، من فريق المحلة الى فريق المدرسة وبعد ذلك الى منتخب المدينة وهكذا. وكنت دائمًا أنحف اللاعبين وأضألهم حجمًا، ولكن الويل لهم ان أمسكت بالكرة، سأحيلهم الى فِيَلة تنوء بخراطيمها الطويلة، وأهرول أمامهم كظبي أنوف وهم يدبّون خلفي لاهثين.

-٤-

كانت الدنيا جميلة مثل العوم في الأنهار الهادئة أيام الصيف اللاهبة، نغرس أجسادنا البكر ونتحرك لنشق الأمواج الناعمة فتنبض قلوبنا بذلك الفرح الفقيد، من يعيد لي تلك الأيام؟ سأعطيه عنقي فداء بدل أن أكون هكذا مشدوداً الى امرأة شعثاء الشعر، الى أولاد وبيت وخبز وسكر ودائنين. في وجهي بقية من ذلك العنفوان الأول وفي عينيّ الكثير من البريق الذي لم تستطع الحياة ولا الهموم أن تسلباه منهما. وبهذا الوجه والشعر الأشيب المنسدل على الجبين اقتنصتها، جعلتها تحرن عن المضي الى أية زاوية أخرى. جعلتها تراوح لتبقى معي، وعندما أحدثها أو

أسلّمها معاملة أرى في وجهها تلك البسمة الصافية التي ندر أن أجد شبيهاً لها في وجه روجتي الشعثاء الغارقة بروائح الطبخ ومشاكل الأولاد وثيابهم المتسخة، الغارقة بمشاكلي أنا المتوحد الملعون رغم الأمان البيتي الذي يلفني.

-٥-

مضى حاتم في طريقه. وكان يتوقف بين فترة وأخرى ليصافح أحد معارفه المارّين، سؤال عن الصحة وآخر عن الأحوال ثم كلمة شكر لله، بعد ذلك تأخذهم الدروب حيث تجمعات الصبية وعربات الباعة ونداءاتهم ذات الرنين.

من جاءبك وغرسك في طريقي؟ من دلّك علي؟ ألا تعرفين أنني رجل منذور للتعب والضنك؛ أقود عائلة كبيرة وأحمل لها الخبز والخضار والحليب وأوزع راتبي الشهري الى أبواب؛ ألا تعرفين هذا؛ وفوق ذلك ماالذي ستجدينه عندي؛ وماالذي أقدمه لك؛ لقد أمّتني تلك المرأة الشعثاء؛ أخذت مني كل شيء. من كان يتصور أنها ستكون هكذا؛ قاسية، عنيدة، عامرة بروائح الطبخ ولسانها يلسع كالسكين المحمي على النار؟

يوم رأيتها كانت غير هذا، كانت سمراء خجولة، طوال ساعتين لم تجرؤ وترفع عينيها لتصافحا عينيّ. كانت يداها تعبثان بأطراف جديلتيها الطويلتين المستقرتين في حضنها، وتداعبان الشريط الوردي الذي شد في طرف كل جديلة. يومها قلت لأختي:

-هذه فتاتي التي أبحث عنها يا هناء.
-ولكنها صغيرة!
-أبداً . انني أكبرها بخمسة أعوام على الأكثر.

ونطقت أمي رحمها الله معلقة:

-البنت سرعان ما تشبّ، لاتخافي.

وبعد يومين من هذا الحوار حملت أمي حالها وراحت الى بيت ذويها وتمت الخطوبة وبعدها الزواج، ثم جاء الأولاد والمشاكل والديون. تخليت عن لعب الكرة وانصرفت لحياتي حيث البحث عن لقمة الخبز لأعالة هذه الأسرة التي بدأت تكبر تدريجياً، وعرفني بائعو الخضار والخبازون والقصابون وباعة الحليب والجبنة والفواكه و. . . . وهكذا.

-٦-

مرّ حاتم بتجمع صبيان كانوا يلعبون الكرة ويتصايحون بأصواتهم الناعمة. مرق من أمامهم وأخذ يحث الخطى مبتعداً عنهم هو وخواطره، ولكنه هب فجأة على الكرة وهي تضربه على ظهره ضربة كادت أن تقطع أنفاسه. فالتفت ناقمًا ولكنه لم يطلق أية شتيمة بل خلع سترته وراح ينفض تراب الكرة الذي علق بها فيما انفجر الصبية ضاحكين.

هرول أحدهم باتجاهه وقال له:

-عمو العفو والله لم أقصد هذا.

ابتسم في وجهه باشاً وقال:

-لاتهتم، هذه مسألة بسيطة.

لقد كان يفعل مثلهم يوم كان يتدرب مع أقرانه، ولولا ذلك لما استطاع أن يكون عضواً في منتخب المدينة.

لبس سترته وانسرب في الطريق.

-٧-

لقد وجدها أمامه يوماً. كانت رفيقته في العمل. قالت له مرة وهي تقرأ عينيه:

-لقد سمعت عنك الكثير، وكنت أتابع مبارياتك من شاشة التلفزيون

-أوه، كان هذا في الماضي، أما اليوم فقد شبنا.
-أبداً ، ما زلت فتياً.
-لاتملئيني بثقة باطلة، الأولاد سلبوا مني كل شيء مما جعلني أتقاعد عن اللعب مبكراً.
-أقسم انك تبدو أفتى من لاعبي اليوم.

ضحك في قرارته. هاهي امرأة تخرج من بين الصفوف لتمدّه بدماء جديدة. انها فتية، باسقة، شعرها القصير يلتمع بسواده الفاحم، والعطر الذي خضبت به وجهها وثيابها يحيط بها ويغطي المساحة التي يخطر فيها جسدها. أين هذه المرأة من تلك التي خلفها في البيت؛ تلك الشعثاء السليطة؛ ما أجملها؛ انها رصاصة الرحمة التي جاءته لتكون المحفز الأخضر له في هذا البور الشاسع.

-٨-

يسرع في خطواته وهو يتأمل ساعته، يدس يديه في جيبي بنطاله، ثم يصفر بلحن خفيف يغتسل فيه من كل أتعابه الرابضة على صدره، ويحاول أن يقنع نفسه بأن فرصاً كثيرة مازالت أمامه، وأن البسمة الصافية مفتاحه لتلك الجنان. أما تلك المرأة الشعثاء فقدره الذي يجب أن يثور عليه، أن يندد به. والمهم الآن أن تنهب قدماه الكرة من ملعبها لتسجلا اصابة جديدة في هدفها غير البعيد.

-٩-

أخذ الكرة وبدأ هجومه.

- بيروت -